جولة أثرية

أحمد وصفي زكريا

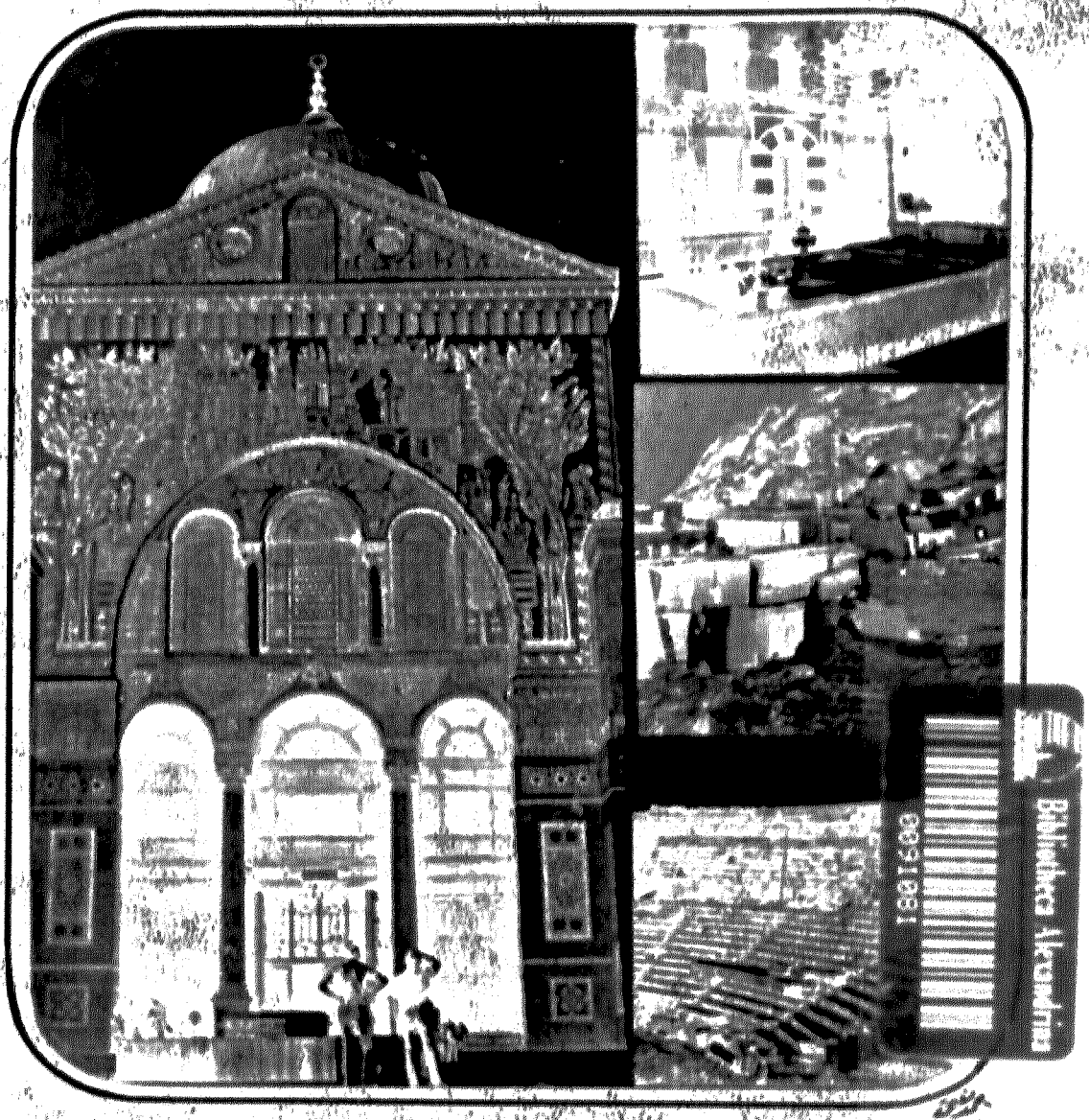

دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

جولة أثرية
في
بعض البلاد الشامية

أحمد وصفي زكريا

جولة أثرية
في
بعض البلاد الشامية

وصف طبغرافي تاريخي أثري عمراني للبقاع والبلدان الممتدة
من شمالي الأسكندرونة إلى أبواب دمشق

دار الفكر

الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
ط ١ : ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م
تم تنقيحها وتصحيحها وإعداد فهارسها المعينة
في قسم التحرير بدار الفكر

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ،
كما يمنع الاقتباس منه ، والترجمة إلى لغة أخرى ،
إلا بإذن خطي من دار الفكر بدمشق

طبع بأجهزة (C. T. T. السويسرية) للصف التصويري ،
وبالأوفست في دار الفكر هاتف (٢١١١٦٦/٢١١٠٤١) ، برقياً (فكر)
ص.ب (٩٦٢) دمشق-سورية Tx FKRMGS 411745 Sy

مقدمة الكتاب

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض ﴾ [غافر : ٨٢]

لما كنت مفتش أملاك دولة الشام[1] في سني ١٣٤٤ ـ ١٣٥٢ هـ ، وأكلف من حين إلى آخر بالتجوال في تلك الأملاك الشاسعة ، كنت أنتهز الفرص بسائق الولع ، فأستقصي أوصافها من نواحي الطبيعة والزراعة والعمران ، وأنساب الحاضرة والبادية من السكان ، وأستنفض المباني التاريخية والخرب الداثرة ، وأجمع ماأراه وأسمعه وأقيده . وكنت كلما وجدت وقتاً وسبيلاً ، أتعدى تلك الأملاك إلى غيرها من البقاع والبلدان فأجوبها باحثاً ومنقباً بقدر المستطاع . وإذا عدت إلى دمشق ، أرجع فيما رأيته إلى ما يكون قد كتبه عنها المؤرخون والجغرافيون العرب ، والرحالون والأثريون الإفرنج ، فأقارن ماعلمته بما قرأته ، وأستخلص منها زبداً أتحين الفرص لنشرها .

وكان مما يشجيني أنني لم أجد كتاباً عربياً يصف أحوال بلادنا وصفاً يعرف به المتجول الكوائن الطبيعية ، من جبال وأنهار ونجود وأغوار ، وعمران المدن والقرى في العهود الغابرة والحاضرة ، وحالة المصانع القديمة ، والأماكن الأثرية وسبب بنائها وكيفيته ، ومسافة الطرق والمسالك واتجاهاتها ، إلى غير ذلك من الأبحاث التي تدعى بعرف الإفرنج (الطبغرافية التاريخية) . فجغرافيو العرب القدماء وضعوا مؤلفات جديرة بكل

---

(١) عنيت بالشام البلاد التي تدعى سورية . وقد احتفظت في كتابي هذا بالاسم الأول وهجرت الثاني ، لأنه هو الذي عرفه العرب ، واصطلحوا عليه في أحاديثهم وكتبهم ، فقالوا دمشق الشام وطرابلس الشام وثغور الشام . إلخ ..

إجلال وإطراء ، ذكرت بعضها في قائمة مصادر كتابي ، وقد اقتبست منها نبذاً غير يسيرة ، لكن مؤلفاتهم عامة لا خاصة ، ليس فيها من الأبحاث التي كنت أنشدها القدر الذي يفي بحاجتنا في هذا العصر ، بعد أن تغيرت البلاد ومن عليها . وكتبنا الجغرافية الحديثة الخاصة بالبلاد الشامية جعلها أصحابها وجيزة ، إن وفت بحاجة المدارس ، لا تنفع غلة الباحثين والسائحين بحال . أما الإفرنج فقد أحاطوا علماً بكل أصقاعنا ، فلم يغادروا مدينة من مدننا وخربة من خربنا وبادية من بوادينا إلا وجاسوا خلالها ، واستقرؤوا صامتها وناطقها ، وأجادوا وصفها من النواحي التي ذكرتها آنفاً ، وألفوا فيها مجلات تفوق الحصر بعددها ، نقرؤها بكثير من الإعجاب والإكبار ، وإن اختلفت وجهات أصحابها وغاياتهم عنا ، أخص بالذكر منها ، تلك الكتب الصغيرة الحجم ، الدقيقة الحروف ، المختصة بدلالة السائحين ، ككتب (إيزامبر وشوفة وبيديكر وبرنابة ومونمارشة) وغيرهم ، الذين لم يقتف أثرهم أحد منا بعد ، حتى أصبح هؤلاء الإفرنج يعرفون بلادنا معرفة تامة ، ليس لأكثر خاصتنا ـ دع العامة ـ نصيب من بعضها لفقدان أمثال تلك الكتب لدينا ووفورها لديهم .

فقد كنت وأنا أتوغل في هذه الأبحاث ، أرى بكثير من الأسف ، أن جل مثقفينا ومفكرينا لا يعرفون من شؤون مساقط رؤوسهم ، وجغرافيتها وتاريخها القديمين والحديثين ، ولا من بقاعها ومصانعها الأثرية ، ومفاخرها التليدة ، ومدافن رجالاتها البارزة وتراجمهم قدراً كافياً ، ناهيك ما يختص من ذلك ببقية البلاد الشامية القريبة منهم ـ خل عنك النائية ـ وتراهم في هذه المواضيع ، في غفلة جد مخجلة ، تجاه الغرباء والأجانب إذا حاولوا أن يسألوهم يجمون أو يجمجمون . ورأيت أن الولع بالسياحة ، والتجوال عندنا في منتهى القلة ، على حين أننا أمرنا بالسير في الأرض ، والاعتبار بآثار من كانوا قبلنا وعواقبهم ، وشعراؤنا قديماً لم يقصروا في مدح السفر وتعداد فوائده ، وأسلافنا على قلة الوسائل وصعوبتها في عهدهم ، لم يتوانوا عن السياحة والتطواف ، بداعي الحج أو طلب العلم أو التجارة أو غيرها . ومن تجول وانتقل منا في يومنا إلى غير بلدته ، لا يفكر إلا بارتياد أماكن اللهو والفرج ، أما الخطط القديمة والمباني التاريخية ، والمعاهد التي فيها فائدة الاطلاع على عمران تلك البلدة ومعارفها وصناعتها وزراعتها فقل من يجفل

بها ، وأقل من ذلك أن يعمد أحد هؤلاء الحافلين للبحث والكتابة عنها ، كما كان يعمل الآن الغربيون الولوعون بتدوين ونشر ما يرونه ويسمعونه ، لاسيما إذا كان فيه أبحاث قيمة وأخبار طريفة .

ورأيت أن كثيراً من مدننا وكورنا ـ جمع كورة[1] ـ القديمة ، مابرح مفكروها مقصرين في تدوين تاريخ بلدتهم أو كورتهم ، ووصف عمرانها الغابر والحاضر ، على النحو الذي عمله بعض أسلافنا وبعض معاصرينا . فقد ذكر كاتب جلبي ، صاحب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) ، أسماء توراريخ بعض المدن الشامية وغير الشامية ، لاأثر لمعظمها الآن . منها عدة تواريخ لكل من دمشق وحلب والقدس ، وواحد لحماة لم يصرح باسم مؤلفه ، ومنها اثنان لحمص أحدهما لابن عيسى ، والثاني للقاضي عبد الصمد بن سعيد ، وقد نوه ياقوت في معجمه بهذا مراراً ، وواحد للرقة لأبي علي محمد بن سعيد القشيري ، وواحد لصفد للقاضي شمس الدين العثماني . وقد اطلعت فيما اطلعت عليه من آثار معاصرينا على ثلاثة تواريخ للشام كله ، واثنين لحلب ، وواحد لدمشق ، ومثله لحماة ولبعلبك ولصيدا ولحيفا وللناصرة ولزحلة ولصيدنايا ولمقاطعة كسروان . بينما لاتزال أكثر مدننا القديمة مقصرة في هذا الموضوع الهام ، أخص بالذكر منها حمص وأنطاكية واللاذقية وطرابلس والمعرة ونابلس وعكا ويافا وغزة ، فضلاً عن الكور التي ـ وإن لم تحتو على بلدة ممتازة ـ تؤلف بمجموع قراها بيئة ذات تاريخ واحد ، كحوران والبقاع ، والبلقاء والجزيرة الفراتية ، وغيرها .

ورأيت أيضاً أن الأسر الكبيرة المدعية بعراقة النسب وأثالة الحسب ، جل أبنائها في غفلة عن ماضيهم ، لا يعرفون أسماء أجدادهم الأقرباء ، دع أسلافهم البعداء ، ولا يحيطون بتاريخ أسرتهم ومنشئها ، وكيفية مجيئها إلى موطنهم الحالي واستقرارها ، وأوسعهم اطلاعاً لا يروي لك عن أسرته وأسماء أفرادها الحاضرين والغابرين وأحداثهم إلا نتفاً ، لاتستند في الغالب على برهان معقول ، ولا تخلو من شائبة التناقض أو المبالغة . ومن الغريب أن

---

(١) قال ياقوت الحموي في مقدمة كتابه معجم البلدان : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها .

كثيراً منهم يتوق إلى ربط سلسلته بحلقة أحد آل بيت الرسول ، أو أحد الصحابة ، أو الأولياء الأبرار ، أو أحد الملوك والأمراء الأخيار ، وقل من يستطيع أن يؤيد مدعاه بوثائق مكتوبة أو شجرات محفوظة ، مما يجعل الشك في بعض دعاوي الأنساب عندنا يسود على اليقين .

هذا وبينما كنت أتدبر كيفية الشروع في كتابة رسالة تسد بعض هذه النواقص الظاهرة لدينا ، عثرت على رحلة السائح التركي الشهير المعروف بـ (أولياجلبي) ، فرأيت أن أجعل القسم المختص منها بالشام أساساً لما أكتبه ، فبادرت لتعريبه بتصرف ، وعلقت عليه شروحاً كانت في البدء مختصرة ، ثم استطالت بحكم الاستحسان الذي رأيته من بعض ذوي الفضل والتقدير ، حتى فاقت على الأصل وأربت . وقد نشرت قسماً غير يسير منها عام ١٣٥١ هـ ، في المجلد الثاني عشر من مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق تحت عنوان (رحلة أوليا جلبي) . ولما رأيت توالي ذلك الاستحسان ، لاسيما وهي الأولى من نوعها في لغتنا العربية ، وقع في نفسي أن أحورها وأطولها ، وأطبعها على حدة باسم (جولة أثرية في بعض البلاد الشامية) .

وقد وضعت الآن رحلة (أوليا جلبي) في بدء كتابي هذا وحدها ، ووضعت الشروح التي نوهت عنها بعدها ، فجعلتها جولة قائمة بنفسها ، تجتاز الطريق التي سلكها الجلبي من طرسوس وآذنة ، إلى مسيس وبياس والأسكندرونة ، وجبل اللكام وبيلان ، وسهل العمق وأنطاكية ، وجبل القصير وجسر الشغر ، وسهل الغاب وقلعة المضيق ، وقلعة شيزر وحماة والرستن ، وحمص وحسية ، والنبك والقطيفة ، إلى باب دمشق . فوصفت ما يراه السائح في هذه الطريق ، من الكوائن الطبيعية كالجبال والأودية ، والحزون والسهول ، والأنهار والبحيرات ، وما عملته أيدي البشر ، كالمدن والقرى ، والمسالك والقلاع ، والحصون والخانات ، والمساجد والديارات ، والبيع العامرة والداثرة ، ومواقع المعارك الهامة ، وكلما وجدت مجالاً ونفعاً ، توسعت في البحث إلى البقاع المحيطة بهذه الطريق أيضاً ، ودرجت خلاصة تاريخ تلك المدن والبقاع ، وأحداثها الخاصة ، وسردت الفرق بين عمرانها السابق واللاحق ، وذلك على نهج الأثريين والمستشرقين الإفرنج ، في التوصيف والتبيين ، مع الإشادة بمآثرنا العربية ، والتنويه بذكرياتنا القومية .

ومعظم هذه الأوصاف ، مما رأيته بعيني ، وتحققته بنفسي ، أو بالواسطة الوثيقة ـ على عسرة نواله ـ أو مما عثرت عليه فيما ظفرت به ، من الكتب الجغرافية والتاريخية ، والرحلات القديمة والحديثة ، العربية والتركية والإفرنجية ـ على تفرقه في تضاعيف السطور ـ فجاء في الكتاب وافياً على ما أظن ، ببعض حاجة من يقدر هذه الأبحاث قدرها ، ويعرف مبلغ التعب والنشب اللذين تتطلبها ، لأنني مهما أسهبت ، أعتقد أن المجال حتى في هذه الجولة القصيرة مابرح واسعاً ، وأن فوق ماتجولت وكتبت أماني حالت دون استكمالها عقبات ومثبطات .

وهذه الأبحاث كما يعلمها العارفون ، تقوم في الغرب بمساعي رجالات وبعثات ، تمدها الجميعات أو الجامعات بالمال ، وترعاها الدول بالعناية والحماية . وإذا جاء أحد هؤلاء إلى بلادنا ، وعمد للبحث والتدوين ، أعانه على ذلك ذوو الحول والطول ، من أبناء قومه المنبثين عندنا في الصحراء والحاضرة ، والمشرفين على كل عمل ودائرة ، وتهافتوا إلى إطلاع ذلك الباحث ، على مالديهم من التقارير والأضابير ، أو أجابته عن أسئلته ، أو هدايته إلى الأشخاص والأماكن والمباني ، المتعلقة بهذه المواضيع المحتاجة لكثير من الموآزرين . بينما أحدنا لايحلم بمثل هذا المدد والعناية ، والتنشيط والهداية ، وليس له سوى التعويل على نفسه ونفيسه الضئيلين فقط ، وحسبي أن أكون قد استرعيت الأنظار ، نحو هذه الأبحاث الطريفة ، ليقوم غيري من أبناء هذه البلاد ، فينسج على هذا المنوال ، ويأتي فيها بأحسن وأصح الأقوال ، والله ولي التوفيق .

دمشق في ربيع الثاني ١٣٥٣ هـ
تمـــــوز ١٩٣٤ م

أحمد وصفي زكريا

رحلة أوليا جلبي

محمد ظلي أفندي المعروف بأوليا جلبي ، أي الولي الفاضل : سائح تركي شهير من رجال القرن الحادي عشر الهجري (ولد في سنة ١٠٢٠ هـ وتوفي في سنة ١٠٩٠ هـ) وهو آباظي قفقاسي الأصل ، ولكنه ولد وترعرع في استانبول ، كان في صباه ذا صوت جميل ، ساقه للولع بفنون الأدب والموسيقى . ففي ذات يوم في رمضان سنة ١٠٤٥ هـ ، بينما كان يتلو القرآن في جامع آيا صوفيا ، أعجب السلطان مراد الرابع بحسن تلاوته ، فرفعه إلى قصره وجعله من ندمائه ، إلا أن تلك النعمة والأبهة ، اللتين صادفها أوليا جلبي في القصر ، كانتا محاطتين بضروب التقييد والحصر ، فلم تروقا لعينيه ، ولم تتفقا مع خفته وظرفه ، وحبه للحرية والانطلاق ، وشغفه بالسفر وجوب الآفاق . فغادر القصر بعد مكوث سنتين ، وراح يجول في الأمصار التي كانت تتألف منها السلطنة العثمانية المترامية الأطراف في ذلك العهد ، تارة لوحده وتارة بصفة إمام ونديم في بطانة كبار الوزراء والقواد ، لاسيما مع قريبه ملك أحمد باشا ، أحد صدور ذلك العهد البارزين ، ورافق أهم الجيوش التي ساقتها الدولة العثمانية إذ ذاك في الشرق والغرب ، وحضر الحروب ، وبهذا تسنى له أن يرى أكثر بلاد الأناضول ، والروملي والقفقاس ، ووصل إلى جزيرة كريت ، وجال أيضاً في بعض أنحاء إيران بمهمة رسمية ، وذهب مرة صحبة رجال السفارة العثمانية المرسلين إلى فينا عاصمة النمسا ، فتوجه منها إلى ألمانيا وهولاندة ، وبولونيا وروسية ، ورجع إلى استانبول عن طريق جزيرة القرم . وقد وضع في وصف رحلاته العديدة ، عشرة مجلدات كانت محفوظة برمتها في مكتبة برثو باشا في التكية السليمية في أسكدار ، طبع منها أحمد جودة صاحب جريدة أقدام في سنة ١٣١٤ هـ . وبعدها أربعة مجلدات ، ووقف بعد عن طبع البقية .

ورحلة (أوليا جلبي) تعد عند الترك من الآثار القيمة ، التي يفخرون بها ، لما تضمنته من بيان عمران البقاع ، والبلدان التي شاهدها ، ووصف مناظرها ومبانيها ،

وأحوال سكانها ، وصفاً جميلاً في أسلوبه وحسن بيانه ، تتخلله طائفة من النبذ الجغرافية والتاريخية ، والاجتماعية والفكاهية ، لولا أن فيها شيئاً غير يسير من شوائب المبالغة والأحاديث الخرافية ، التي كان يعنى الجلبي بها ، شأن رجال تلك الأيام .

ولم تفت الجلبي من الأقطار العربية الشام ومصر والحجاز . جاء مرة إلى دمشق سنة ١٠٥٨ هـ ، صحبة الوزير مرتضى باشا الكرجي المعروف بالسلحدار ، المعين نائباً على بلاد الشام ، وذهب معه لما جرد جنده لجباية الأموال الأميرية ، من الدروز وغيرهم في جنوب جبل لبنان وأنحاء صفد ، وأرسله الباشا في غيرها بمهمة إلى غزة ، فمر بأكثر مدن الشام الشمالية والجنوبية ، وعرفها ووصفها في المجلد الثالث الخاص برحلته هذه ، وهذا هو المجلد المطبوع الذي ظفرت به وعولت عليه . أما المجلد التاسع ، الخاص برحلة أخرى له إلى بلاد الشام والحجاز ، والذي أظن أن فيه تفصيل أوفى ، فقد ظل مخطوطاً في مكتبته . وقد قصرت يدي عن بلوغ هذا المجلد ، ولم يعد ثمة أمل برؤيته مطبوعاً ، بعد أن أبدل الترك الأحرف العربية باللاتينية ، وقضوا على فكرة طبع المخطوطات القيمة المدفونة في خزائن مساجدهم .

وقد استرعت رحلة هذا السائح التركي أنظار علماء المشرقيات في أوروبا ، فترجموا منها ما يختص ببلادهم ، إلى اللغات الألمانية والإنكليزية والمجرية . لذلك أحببت أن أحذو حذوهم ، فأنقل إلى لغتنا وصف البلاد الشامية ، التي زارها صحبة مرتضى باشا ، حسبما درجه في المجلد الثالث ، وفي ظني أن في ذلك ما يفيد معرفته ، من الأوضاع الجغرافية والحالات الاجتماعية التي كانت قبل ثلاثة قرون . وقد تصرفت في عبارة الجلبي ، وحذفت منها ماليس في ذكره نفع ، وعلقت عليها نبذاً في ترجمة الأشخاص ، وذكر أسماء المدن والقرى التي كانت في طريقه أو حوله ، مما فاته بيانه ، ووصفت منها بعض ماتسنى لي زيارته ورؤيته ، أو العثور على ذكره في الكتب الجغرافية والتاريخية ، والرحلات القديمة والحديثة ، وعنيت بسرد الفرق ؛ بين حالتها حينما مر بها الجلبي وحالتها الحاضرة .

وقبل الشروع بسرد الرحلة ، لابد من التنويه بأن المحبي صاحب كتاب (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) ـ وقد ترجم كثيراً من فضلاء الترك وأعيانهم في ذلك

العهد ـ لم يذكر اسم (أوليا جلبي) على الرغم من أن هذا جاء الشام ، وساح فيها ومكث في دمشق مدة ، ولم يترجم أيضاً مرتضى باشا ، الذي حضر الجلبي في حاشيته ، وظل والياً في دمشق نحو نصف سنة ، وبعد التحري وجدت ذكر هذا الباشا في كتاب (الباشات والقضاة) تأليف محمد بن جمعة المقار ، الذي منه نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسي في مكتبة مجمع اللغة العربية في دمشق ، قال : وفي سنة ١٠٥٨ هـ تولى دمشق مرتظا باشا (كذا) ، فلما جلس أمر بالمسير وعسكر دمشق بالركوب على أرض صفد ، فلما وصل نصب أوطاقه وأعيان دمشق ، فاستقام هناك مدة ، فخرج بعض أغواته وبعض أعيان دمشق يلعبون بالجريد ، فصاب بعض أغواته جريدة فقلعت عينه ، فحقد الباشا المذكور على أعيان دمشق وبغضهم ، فهجموا على أوطاقه وقطعوه ومزقوه ، ورجع عسكر دمشق إلى الشام ، فبعد عشرة أيام رجع ودخل إلى السراية ، فما استقر مدة إلا وجاء بعزله فعزل ، وسار إلى استانبول فصار وزير أعظم ، وما قدره الله بشيء انتهى بالحرف . وأخيراً : عثرت عرضاً في كتاب المحبي على ذكر مرتضى باشا في صدد ترجمة عبد السلام المرعشي ، أحد أعيان الجند بالشام ، وصاحب الحول والطول في ذلك العهد . قال المحبي : وكان عبد السلام لما وجهت نيابة الشام لمرتضى باشا الكرجي ثانية ، في سنة سبع وستين وألف ، وتصرف بها متسلمه اضطرب لذلك اضطراباً شديداً ، لما كان قد وقع له من المعاداة في توليته الأولى ، فأخذ يدبر أشياء لمدافعته ، ثم أداه اجتهاده إلى أن جمع جمعاً عظيماً في الجامع الأموي ، وأحضر أكثر أهل البلدة ، وذكر لهم ظلمه ، وأشار عليهم بأن لا يرضوه حاكماً عليهم ، وكان نائب الشام السابق المعروف بالسلاحدار[1] لم يخرج بعد من دمشق ، وكان مقيماً بالميدان الأخضر ، فذهب القوم إليه ، وأبرموا عليه أن يبقى نائباً وكتبوا في هذا الشأن عروضاً ومحاضر ، وأرسلوها إلى الأبواب السلطانية ، وخرج متسلم مرتضى باشا هارباً ، ولما وصل إليه وهو في الطريق ، أرسل إلى الباب السلطاني يعلمهم بما وقع . فقرر في نيابة الشام بخط شريف ، فلم يمكنوه وأظهروا الممانعة ، وجمعوا جمعاً عظيماً من أوباش الشام ، وعزموا على محاربته ، وطلعوا إلى قرية دوما وهم في جيش عرمرم ، وكان مرتضى باشا وصل إلى القطيفة ، فلما سمع بخبرهم ولى راجعاً ولم يدخل دمشق أ هـ .

---

(١) كان اسمه محمد باشا ، وهو الذي رمم مأذنة جامع المعلق ، على ضفة بردى بين الحواصل ، سنة ١٠٥٨ هـ .

فيظهر من هذا ، ومما عثرت عليه في (التقويم السنوي لولاية سورية) لسنة ١٣٠٤ هـ ، أن مرتضى باشا عين لنيابة الشام مرتين ، الأولى في سنة ١٠٥٨ هـ حينما جاء معه (أوليا جلبي) ودخل بموكب عظيم ، واستقبلته جنود دمشق وأعيانها ، استقبالاً فخماً كما سيأتي بيانه . على أن هذا الباشا كان جباراً عاتياً ، خاصم أعيان دمشق ، كما ذكره صاحب كتاب الباشات والقضاة ، فعزل بعد أربعة أشهر ، لكنه عاد للمرة الثانية في سنة ١٠٦٧ هـ ، فلم ترض به جنود دمشق وأعيانها ، واضطروه للرجوع ، فنقمت الدولة بسبب ذلك على عبد السلام المذكور ورفقائه ، الذين قادوا هذه الفتنة ، وكان من جملتهم الأمير منصور الشهابي وابن عمه الأمير علي ، فقتلتهم جميعاً تباعاً ، وصادرت أموالهم وأملاكهم ، وفاقاً لعوائد تلك الأيام ، وأعادت مرتضى باشا ، فبقي هذه المرة خمسة أشهر ، ثم عزل ثانية .

أما الرحلة فهي كما يأتي :

كان (أوليا جلبي) يتدبر قضاء فريضة الحج ، فانتهز فرصة سفر مرتضى باشا المعين نائباً على الشام ، وصار نديمه ورئيس المؤذنين والأئمة في بطانته . وكانت قافلة الباشا مؤلفة من مئات الحواشي والأتباع والجند ، وألوف الركائب والبغال المثقلة بالعتاد والأمتعة ، شأن قوافل الباشوات العظام في ذلك العهد ، وغادر مدينة أسكدار في غاية شهر شعبان سنة ١٠٥٨ هـ ، التي جلس فيها السلطان محمد خان الرابع على كرسي آل عثمان ، وهو بعد صبي ابن سبع سنوات ، وراح الجلبي يتنقل مع تلك القافلة في بلاد الأناضول ، كأزنيق وأسكي شهر ، وآق شهر وقونية ، وأركلي وأولوقيشلة ، ووقف برهة في نجود جبال طوروس ، ووصف طيب مناخها وجودة مراتعها ، ودخل من مضيق (كولك بوغازي) ووصف قلعته الشاهقة ، ثم أقبل على سهول آذنة ، ووصف قطعان الجواميس الضخمة ، التي شاهدها في بطائحها ، وأن منها ماهو خاص بالدولة ، تعده لجر المدافع الثقيلة ، ثم وصل إلى آذنة ، وبعد أن ذكر أنه وصفها في المجلد الخاص بسفرته إلى الحجاز ، ذكر اجتيازه جسرها ذا الست عشرة قنطرة ، المبني على نهر سيحان ، ثم ذكر وصوله إلى قلعة مسيس . ثم قال : غادرنا مسيس واجتزنا مضيقاً اسمه (الجاق بل) ، كنا نرى فيه قلعة شاهران على يسارنا فوق صخرة عالية ، ثم اجتزنا منزلاً اسمه (قورت قولاغي) ومكثنا

فيه مدة ، ثم وصلنا إلى مكان مخوف وخطر ، اسمه (دمير قبو) رأينا فيه آثار جدار عظيم ، كان فيه باب من حديد ، وهناك قلعة خربة ، فوق أكمة جرداء ، وما زال أكراد ناحية الجومة يأتون إلى هنا ويقطعون السابلة . وبعد أن اجتزنا هذا المحل الموحش وصلنا إلى بياس .

وقد وصف (أوليا جلبي) قلعة بياس ، ودورها وبساتينها ، ودار مكسها وميناءها ، وخانها وجامعها ، الذي بناه (محمد باشا الصوقوللي) الصدر الأعظم الشهير ، وأثنى على أهلها ، لأنهم كانوا يردون عادية قرصان البحر ، ويحرسون المسالك والمضائق ، الممتدة شمالي بياس وجنوبها ، من شر لصوص الجبال ، ويسهلون سبيل الحجاج والتجار المارين ببلدتهم ، من بر الترك إلى بر الشام وبالعكس ، ونوه بشدة حرها في الصيف ورداءة هوائها ، واضطرار أهلها إلى الاصطياف في النجود والهضاب المحيطة بهم ، وذكر أن ألوفاً من الأكراد والتركمان أصحاب قطعان الغنم والماعز يتسلقون هذه النجود في فصل الصيف ، ويطلقون مواشيهم ، ترعى أعشابها الغضة ، وتشرب مياهها النميرة .

ثم قال : وبعد أن مكثنا في بياس يومين ، غادرناها واجتزنا في جنوبها جسراً متقن الصنع ، ذا أربع منافذ من آثار محمد باشا الصوقوللي ، ووجدنا في قربه على شاطئ البحر ، تكية باسم الشيخ عبد القادر الكيلاني ، عامرة الأركان آهلة بالدراويش ، ثم استأنفنا المسير نحو القبلة ، فمررنا بتكية ثانية أصغر من الأولى ، فيها بضعة دراويش ، ينتسبون إلى الطريقة البكتاشية ، ثم اجتزنا جسراً نصب على نهر ، تجتمع مياهه من الأودية المنحدرة من أعالي الجبال التي ذكرناها ، وتصب في البحر . وعلى مقربة من هذا الجسر ، مررنا بقلعة تدعى قلعة المركز ، تبعد عن البحر رمية سهم بنيت في سفح جبل عال ، وهي مربعة الشكل ذات بناء جميل ، قيل إنها من عهد القياصرة . ولما مر السلطان سليم من هذا المكان سنة ٩٢١ هـ ، وهو ذاهب للاستيلاء على مصر افتتحها بالأمان ، وهي الآن تابعة لنيابة بياس ، وفيها قائد وعدة جنود ، وحولها كروم وبساتين ، وفي داخلها جامع وبضعة بيوت لسكنى الجنود .

وبعد أن اجتزنا هذه القلعة ، مررنا في ساحل البحر بمضيق يدعى (صقال طوتان

= قابض الذقون) ، لاتنقطع والعياذ بالله منه اللصوص وقطاع الطريق ، وجلهم من أشرار الأكراد ، الذين يهبطون من ناحية الجومة من أعمال حلب . لذلك يجدر بالمجتازين من هنا ، أن يكثروا من الحيطة والحذر . وبعد أن مررنا بمكان يدعى (آجي جاي = النهر المر) ، وصلنا بعد ساعتين ونصف إلى قلعة أسكندرونة .

وصف الأسكندرونة - سميت هذه البليدة باسم بانيها إسكندر الكبير ، وبعد أن خربتها عوادي الزمن عمرت في أول عهد الإسلام ، ثم خربت مرة أخرى ، وصارت ملجأ لقطاع الطرق وقرصان الإفرنج ، فاسترعى هذا الحال نظر نصوح باشا الذي كان صدراً أعظم في زمن السلطان أحمد خان ، فشرع ببناء قلعة حصينة في الأسكندرونة ، ولكن السلطان نقم عليه بعد حين ، لتهامل بدى منه فقتله ، وبقيت القلعة دون إكمال ، وحبذا لو أكملت هذه القلعة ، وجدد عمران الأسكندرونة ، لأنها فرضة بحرية ، ذات مكانة وقريبة من حلب نحو مرحلتين ، وقد علمت أنه يزورها في كل عام من سفن المسلمين والإفرنج أكثر من مئتي غليون . هذا وحرمان هذه الفرضة من قلعة ، جعل الإفرنج يتقاعسون عن دفع المكوس إلى الملتزم ، الذي التزمها بمئتي حمل[1] ، وللأسكندرونة قاض يجبي من قراها خمسة أكياس[2] . ولها ميناء لطيف ، لولا أن غربيه مكشوف يأتي بالرمل فيحول دون اقتراب السفن من الشاطئ ، ويضطرها للرسو على بعد رمية مدفع . وإلى الغرب من ميناء الأسكندرونة ، وعلى بعد ٢٦٠ ميلاً بحرياً[3] ، يوجد رأس أندراوس في جزيرة قبرص ، وقد قيل لي أنه إذا اعتدل الهواء وصفا أديم السماء ، ترى من هنا جبال قبرص المجللة بالثلوج ، أما أنا فلم يتسن لي رؤية ذلك . ويكثر وجود الإفرنج والروم في الأسكندرونة ، لهذا لاتجد فيها جامعاً أو خاناً أو سوقاً سوى الخانات ، فإنها كثيرة ، وقد اعتاد الصادي والغادي إلى الأسكندرونة أن يمكث ليالي الشتاء في هذه الخانات ، حتى صارت تشبه الخانات . ويجلب الماء إلى الأسكندرونة على ظهور الحمير من نبع في خارجها يدعى نبع القوافل ، وقد اعتاد الداخلون إلى هذه البلدة والخارجون منها أن يضربوا

---

(١) إذا كان الحمل مئة ألف قرش ، فالمئتا حمل تعادل عشرين مليوناً من القروش ، ولعل الجلبي مبالغ بهذا المبلغ .

(٢) الكيس خمسمئة قرش .

(٣) صحيحه مئة وخمسة أميال .

خيامهم قرب هذا النبع . وفي الأسكندرونة وكلاء أو قناصل لسبع دول ، أما القناصل الأصليون فمركزهم في خان الإفرنج في حلب . ولما كانت الأسكندرونة فرضة بحرية وباب تجارة لحلب وضواحيها ، تجد بجانب جمركها مخازن عظيمة ، يقوم فيها تجار الإفرنج بالبيع والشراء دون انقطاع . حتى أنه لما مر مولانا مرتضى باشا من هنا بموكبه الحافل ، كان من سفن الإفرنج ستة وعشرون غليوناً راسياً في الميناء ، فأطلق كلها المدافع ترحيباً بجنابه ، ودام الإطلاق مدة غير يسيرة ، حتى كادت الغلايين لاترى من كثرة النار والدخان . وتحيط بالأسكندرونة مستنقعات . ثم قمنا من هنا مع الركب ، فمررنا بنبع القوافل وسرنا نحو القبلة ، نحاذي الساحل تارة ، ونصعد في الجبال أخرى ، وكان المطر ينهمر علينا بشدة ، إلى أن وصلنا إلى بليدة تدعى بيلان .

وبيلان مركز قضاء يتبع أيالة حلب ، فيها نحو ثلاثة آلاف من السكان ، ودورها مبنية من الطين على طرفي جبلين متقابلين بينهما واد ، وهذه الدور يركب بعضها فوق بعض ، وتتخللها أزقة ضيقة ، وهواء بيلان جيد ، وماؤها عذب ، وصحة أهلها حسنة ، وفيها مسجد جميل له قبة مكسوة بالرصاص ، وأمامه خان عامر ، وفيها أيضاً حمام وحوانيت عديدة ، وينتج فيها فواكه وأعناب لذيذة ، فهي صالحة في الجملة للاصطياف ، ثم إن في الجبال التي تعلوها نجود ، اشتهرت بنقاء هوائها وطيب مراعيها . ثم غادرنا بيلان وسرنا نحو الجنوب ، نصعد عقبات ونهبط أودية ، إلى أن جتزنا مضيقاً فيه جنود مكلفون بحفظ الدروب ، وشاهدنا في يميننا على بعد رمية مدفع (قلعة بغراس) ، وهي قلعة قديمة تعاورتها أيدي كثير من الملوك ، إلى أن افتتحها السلطان سليم بالأمان ، حينما مر بهذا الطريق ، وهو ذاهب لقتال الملك قانصو الغوري في مرج دابق . والقلعة صغيرة القد ، مخمسة الشكل ، مبنية على هضبة ، اتخذت قضاءً تابعاً لأيالة حلب ، وأقيم فيها كتخدا وقائد جند الإنكشارية ومحافظ القلعة وجنود ، وفيها جامع وخان وحمام وسوق صغيرة ، على أنها لانحرافها عن الطريق ليست عامرة ، وانحصرت الآن شهرتها بزهورها الفياحة ، لاسيما بالسنبل والمسك الرومي ، وأهلها يقلعون من جبالها وحدائقها أبصال الزهور الجميلة ، فيحملونها ويبيعونها في بقية البلدان ، وقد يصلون بها إلى استانبول .

ثم رحلنا من هنا ، وسرنا نحو القبلة ، فاجتزنا قرة مغرط إلى أن وصلنا بعد اثنتي عشرة ساعة إلى أنطاكية .

وبعد أن ذكر (أوليا جلبي) نبذة من تاريخ أنطاكيـة ، قبل الإسلام وبعـده ، ونوه بفتحها على يد السلطان سليم العثماني عقيب معركـة مرج دابق ، قـال مـا خلاصتـه : وعين السلطان إذ ذاك محمد باشا البيقلي والياً على أنطاكيـة ، ورامي علي أفنـدي قـاضيـاً ، وهي لاتزال بيد العثمانيين ،فيها نـائب ومحتسب ونقيب الأشراف وقـاضي وكتخـدا جنـد وسردار انكشـاريـة ودزدار قلعـة ، وفيهـا جنود وعتـاد وعشرون مـدفعـاً بين كبير وصغير ، وسور أنطاكية مبني على خمسة جبال ، ونصف قلعتها في منحدرات تلك الجبال ، ونصفهـا الثـاني في سفوحها وقرب نهر العاصي ، ومحيط هذا السور اثنـا عشر ميلاً ، وفي الحق أنني لم أر حتى الآن أسواراً وأبراجـاً عـاليـة مثلمـا رأيت في أنطـاكيـة ، وربمـا بلغ علو السور الراكب على الجبال في الجهة الشرقية نحو ثمـانين ذراعـاً ، أمـا السور القريب من نهر العـاصي فواطئ ولا يعلـو أكثر من عشرين ذراعـاً ، كما أنـه غير ضخم ، وإذا دخلت من بـابي حلب ودمشـق وصعدت ، ترى أمامك أبراجاً وقللاً يعلو بعضها فوق بعض ، أما الأحجار التي بنيت منهـا هذه القلل فهي جد ضخمة ، وقد ركبت وألصقت بمهـارة كليـة ، وعلو بـاب حلب المتجـه إلى الشمال نحو عشرين ذراعاً ، وكان ينبجس من الصخور التي في داخلـه ميـاه فوارة ، وفي غربي هذا الباب جسر عظيم يعبر منه فوق العاصي ، ولوفرة علو الجبال المحيطة بأنطاكيـة ، وأرتفـاع الأسـوار الراكبـة عليهـا ، لاتنتشر الشمس على هـذه البلـدة إلا بعـد سـاعتين من طلوعها .

وفي أنطاكية ثمانية قصور عظيمـة ، أهمهـا قصر كتخـاج بـاشـا ، فيـه كثير من الأبهـاء والغرف العديدة المزخرفـة وبـابـه من الحـديـد . وأكثر دور أنطـاكيـة الفخمـة واقعـة على العـاصي ، وفيهـا من الأوليـاء حبيب النجـار الـذي يـزعمـون أنـه كان من حـواريي السيـد المسيح ، وبعـد قتلـه حفـظ رأسـه في تكيـة يزورهـا ويتبرك بهـا المسلمون والنصـارى على السواء . وفي أنطاكية مـدارس للعلوم الشرعيـة وكتـاتيب للصبيـان ، وفيهـا تكيـة لحبيب النجار يهبط إليها بدرج ملئت بالـدراويش ، وأخرى في أعلى الجبل في مكان عـال مشرف يوصل إليه في خلال ساعة ، وفيها حمـامـات تـأتي ميـاهها من العـاصي بـالنواعير ، وفيهـا خانات وأسواق وحوانيت عديدة . ومياه هذه البلدة غزيرة ، تنحـدر من الجبـال العـاليـة المحيطة بها ، لذلك ترى سبلها وينـابيعهـا كثيرة ، كما أن الفـاكهـة تجود وتغزر أصنـافهـا في البساتين التي تروى من النواعير الراكبة على نهر العاصي .

هذا وبعد أن انتهينا من زيارة أنطاكية ، عزمنا على السفر في صبيحة اليوم الأول من شوال سنة ١٠٥٨ هـ ، وبعد أن أدينا صلاة العيد في جامع السوق ضرب نفير الرحيل في قافلتنا ، فغادرنا أنطاكية متجهين نحو القبلة ، وبعد أن اجتزنا كثيراً من القرى العامرة ، نزلنا بعد ثماني ساعات في قرية الزنبقية على شاطئ العاصي ، وهذه القرية واقعة في واد خصب ، له كروم وحدائق ذات بهجة ، وفيها نحو ثلاثمئة بيت ، وقد اشتهرت بجودة تينها وجمال زنبقها . وهنا أقام علي باشا الجانبولاد لمرتضى باشا وليمة عظيمة لم يسمع بمثلها ، فقد أكل كل الجند الذي بمعية علي باشا وعدده كان ينيف على ستة آلاف ، وأكل خلق عظيم لا يسعه الحصر ممن حضر من الجوار ، ومع ذلك فقد بقيت الصحون والقدور ملآنة بالأطعمة النفيسة . وأهدى علي باشا إلى مرتضى باشا ثلاث أفراس من عتاق الخيل ، فقابله مرتضى باشا بفرو من السمور المرصع [١] . ثم استأنفنا المسير إلى الجنوب إلى أن وصلنا إلى جسر الشغر ، وهو مكان موحش على شاطئ العاصي ، وتحيط به مروج خضراء ، وفيه خان صغير ، على أن الأمن هنا مفقود ، نرجو الله أن يوفق أهل الخير لعمران هذا المكان ، وتوطيد الأمن فيه ، ليسهل مرور الحجاج منه .

ثم سرنا إلى الجنوب ، فكنا نجتاز تارة أماكن صخرية وتارة مستنقعات وآجاماً إلى أن وصلنا بعد ست ساعات إلى قلعة المضيق . وهي قلعة صغيرة من أعمال أيالة حلب ، بنيت قرب بحيرة تسمى باسمها ، فوق هضبة مشرفة على السهول والآجام المحيطة بها . ثم غادرناها فوصلنا بعد سبع ساعات إلى قلعة شيزر .

ثم وصلنا إلى حماة . وبعد أن ذكر الجلبي نبذة من تاريخها ، شرع يصف حالتها في زمن مروره ، قال :

---

(١) من هو هذا الباشا الكبير الذي استطاع أن يقوم بتلك الولية العظيمة ؟ لم يذكر الجلبي وظيفته ، ولا من أين أتى ، وما سبب مجيئه لمقابلة مرتضى باشا ، إذ لابد أن يكون غير علي باشا الجانبولاد المشهور الذي حكم حلب في سنة ١٠١٤ هـ ، ثم خرج عن طاعة الدولة العثمانية ، وحارب جيوشها مدة مديدة إلى أن قتل في سنة ١٠٢٠ هـ أي قبل مرور قافلة الجلبي بثماني وثلاثين سنة ، على ماروواه المحبي في خلاصة الأثر . ولما حسبته أنه والي حلب جاء يحتفي بزميله مرتضى باشا ،وجدت (التقويم السنوي لولاية حلب) يذكر في قائمة أسماء ولاتها ، أحمد باشا الدباغ في سنة ١٠٥٧ هـ ، ومصطفى باشا الموستاري في سنة ١٠٦٠ هـ ، والجلبي لم يذكر أحداً منهما . فهل كان مخطئاً في بيان الاسم ؟

وبعد أن استلم السلطان سليم حماة بالأمان ، جعلت سنجقاً تابعاً لأيالة طرابلس الشام ، ويبلغ عدد جندها حين السفر ، مما هو في بطانة أمير لوائها ومن الجبجية الذين يقدمهم أرباب التيمار والزعامة نحو ألفين[1] وفيها مشايخ للمذاهب الإسلامية الأربعة ، ونقيب أشراف ووجهاء وأعيان وكتخدا يري وسردار انكشارية[2] وجري باشي (رئيس جند) ويوزباشي (رئيس مئة) ودزدار قلعة ومحتسب ، ويجبي قاضيها من نواحيها في كل سنة ستة أكياس ، ويجبي أمير لوائها ثلاثين كيساً . وفي حماة قلعة بنيت فوق تل صناعي على شاطئ العاصي ، لكن أكثر أبراجها وأسوارها منهدمة . وفي حماة كثير من القصور الفخمة ، ذات الحدائق الغناء والأحواض والمياه الدافقة ، وأشهرها قصر محمد باشا الأرناؤوط ، وهو مبني على شاطئ العاصي ، وفيه ثلاثمئة غرفة ، وقاعات عديدة وحمامات وحدائق ، ولم أر مثل هذا القصر إلا في دمشق ، وقد أولوا فيه لمولانا مرتضى باشا وليمة يعجز اللسان عن وصفها[3] ، واشتهر أيضاً في حماة قصر الشيخ إبراهيم أفندي بن الشيخ

---

(١) كانت الدولة تتخلى عن حقها في العشر والرسوم الأخرى إلى أصحاب الخاص والزعامة والتيمار ، أو توقفه على جهة من الجهات الخيرية وفاقاً لطريقة الإقطاع ، التي كانت جارية في القرون الوسطى ، وتقسيم الأراضي إلى خاص وزعامة وتيمار كان باعتبار حاصلاتها المقيدة ، مثال ذلك أن الأرض التي غلاتها أكثر من مئة ألف أقجة (الأقجة ضرب من العملة تعادل ثلث البارة) يطلق عليها خاصاً ، وتحال على الوزراء والأمراء وغيرهم من بطانة السلطان ومقربيه ، والتي غلاتها من عشرين ألف أقجة إلى مئة ألف أقجة يطلق عليها زعامة ، وتحال على دفتر دار الخزينة في الأيالة ، ورئيس الألاي في اللواء ، وقواد القلاع ومن كان في منزلتهم ، والتي غلاتها من ثلاثة الاف أقجة إلى عشرين ألف أقجة يطلق عليها تيمار ،وتحال على المستحقين من الجنود ، وكان كل من صاحب الخاص والزعامة مكلفاً بأن يجهز وقت الحرب عن كل خمسة آلاف أقجة جندياً بعدته الكاملة ، وصاحب التيمار مكلف بأن يجهز عن كل ثلاثة آلاف أقجة جندياً واحداً . واستمرت هذه القاعدة التي كانت سائرة في البدء سيراً حسناً إلى سنة ألف من الهجرة ، ثم شابها سوء الاستعمال ، إلى أن ألغيت سنة ١٢٥٥ هـ .

(٢) كانت رتب قواد جند الانكشارية تبدأ بآغة الإنكشارية ، ثم برئيس السكبان ، ثم بكتخدا القول ، وهو معاون الاغا الكبير أو رئيس أركان حربه ، ثم بكتخدا يري ، وهو وكيل كتخدا القول ، وصلة الوصل بين الاغا الكبير وجميع جند الإنكشارية ، يبلغ أوامر الآغا ، بمعرفة الكتاب إلى الدزدارين ، أي محافظي القلاع ، والسردارين أي قواد الجند .

(٣) ذكر (جرجي يني) مؤلف تاريخ سورية اسم باني هذا القصر مراراً في فصل طرابلس ، فما قاله : إن محمد باشا الأرناؤطي ولي أيالة طرابلس في سنة ١٠٥٠ هـ ، وأنه بنى على نهر رشعين قصراً ، وكلف الرعايا أموالاً ، ثم عزل وأعيد ثلاث مرات ، وذلك من شدة جوره وعسفه ، وكان في كل مرة يعاد بعد مدة وجيزة ، وفي المرة =

عبد القادر الكيلاني[1] ، أما جوامعها فكثيرة ، منها جامع أبو عبيدة بن الجراح فاتح حماة وهو في السوق الأعلى ، قيل إنه كان في الأصل كنيسة قديمة ، وأنه بني بمال الخراج الذي أداه أهل حمص ، وقد زبرت على رخامة فيه النفقات التي صرفت في إنشائه ، وألصقت على أحد جدرانه . وهناك جامع قاسم باشا المعروف بكوزلجة ، وهو أول من حكم حماة من العثمانيين بعد فتح السلطان سليم[2] ، وأشهر تكاياها (تكية عبد القادر الكيلاني) ، وهي عامرة ومزخرفة ، وذات إيراد جزيل وتعج بالدراويش[3] ، وأسواق حماة وإن لم تكن عامرة بقدر أسواق حلب ، لكنها حافلة بجميع أنواع البضائع القيمة ، ويكثر فيها الصياغون والحلاقون . وحر حماة شديد لوقوعها في وسط الإقليم الرابع ، وتهب من بريتها ريح سموم ، لذلك يكثر السمر في أهلها ويقل الجمال في نسائها (كذا) . ويلبس الرجال جبباً وقنابيز ملونة تكون في موسريهم من الحرير ، وفي متوسطيهم من القطن أو الصوف ،

= الرابعة أرسل إلى حماة واستقر بها أ هـ . قيل إن هذا الباشا أعقب في حماة ، وأنه لا يزال من أعقابه بعض نساء ، وأنه على الرغم من عسفه كان ولوعاً ببناء القصور والمساجد والحمامات ، فقد بنى في حماة القصر الذي ذكره الجلبي ، وبالغ في عدد غرفه ، ويظن أنه هو دار الحكومة التي احترقت في حادثة حماة في سنة ١٣٤٤ هـ ، ويظهر من وصف الجلبي أن البناء الملاصق للدار المذكورة الذي كانت فيه مدرسة التجهيز ودور بعض السراة المجاورة ، كانت كلها من مشتملات هذا القصر الفخم . ومحمد باشا بنى أيضاً في حماة جامعاً قرب جسر السرايا ، يسمى جامع المدفن ، لأنه دفن فيه وعلى قبره تاريخ وفاته في سنة ١٠٨٦ هـ ، وكان وقف له عقاراً كثيراً ، ومة الذين اتصلوا بخدمته وخدمة ابنه علي باشا ، شاعر حموي اسمه حسن الدفتري المعروف بابن قنبق .

(١) الشيخ إبراهيم الكيلاني جد بني الكيلاني في حماة ، وهو على ماقيل ابن شرف الدين بن أحمد بن علي الهاشمي ، ولد في سنة ١٠٤١ هـ ، وتوفي في بغداد في سنة ١٠٦٨ هـ ، كان ذا ثروة ومكانة عظيمتين ، احتجنها بتصوفه ومشيخته ، بنى قصره الذي ذكره الجلبي من أنقاض قلعة حماة ، وبنى في جانبه جامعاً ، ولا يزال هذا القصر عامراً بأعقاب المترجم ، وهم يؤلفون أسرة كبيرة لبعض أفرادها حظ وافر من سعة الملك ووفور الثروة والوجاهة في حماة وضواحيها . والقصر على شاطئ العاصي الأيمن ، في محلة تدعى جسر بيت الشيخ ، يقصده السياح لرؤية مافيه من محاسن البناء العربي ، كالعقود والقاعات .

(٢) هذا الجامع لم يعرفه أحد ممن سألتهم في حماة ولا سمع بهذا الاسم . فمن أين أتى الجلبي بذلك ؟

(٣) نفى الصابوني مؤلف تاريخ حماة وجود التكايا الآن في حماة . أما التكية الكيلانية فقد أسماها زاوية ، وقال إنها من بناء بني الكيلاني القاطنين في حماة منذ القرن السابع . والذي علمته أن الإيراد الذي ذكره الجلبي اندثر ، والدراويش لم يعد لهم أثر .

وتلبس النساء في أرجلهن أحذية طويلة الساق ، ويلتحفن بملآت بيضاء . ويصنع فيها شراشف ومناشف ومناديل حريرية . ولكثرة الشبان الذين يتجندون تكثر الفروسية بين أهلها ، ويصنع فيها سروج ولجم جميلة متقنة ، أما قمحها فيماثل القمح الحوراني في الجودة ، وكذا الأمر في شعيرها وقطانيها . وتكثر في حماة الخيول الأصيلة . أما حماماتها فكثيرة وعلى غاية من الحسن وإتقان الخدمة ، أخص بالذكر حمام[1] محمد باشا الأرناؤوط ، الذي لم أر في ديار الروم ما يماثله في الإبداع ، إلا أن يكون حمام محمد كراي ، في (بغجة سراي) عاصمة بلاد القريم .

وفي حماة نواعير عظيمة منصوبة على نهر العاصي ، يسمع القادمون إلى هذه البلدة أنينها من مسافات بعيدة ، وهي دواليب مؤلفة من أخشاب وأعمدة ومسامير حديدية على غاية من الطول والضخامة . وتنصب المياه من هذه النواعير في قناطر ، تذهب بها إلى قصور البلدة ودورها وحماماتها ومساجدها وخاناتها . ولكل ناعورة أوقاف ذات إيراد وخدم ونجارون مهيؤون لخدمتها . وإذا اقترب الزائر الغريب منها تكاد آذانه تصم من شدة الضجة . والأغرب من كل ذلك رؤية غلمان حماة المتشردين يتعلقون بأطراف الناعورة ويدورون بدورانها ، حتى إذا علت بهم ألقوا بأنفسهم إلى العاصي فيغوصون فيه ويسبحون . وفي حماة مئات من الحدائق والبساتين التي تروى من هذه النواعير ، ولا يخلو كل بستان من ناعورتين أو ثلاث ، على أن أعظم ناعورة بينها هي ناعورة المحمدية ، التي سارت بذكرها الركبان ، وفي حماة قبران لعالمين من الترك ، أحدهما المولى (حامد جلبي الشهير بطاشكوبري زاده) والثاني المولى (إبراهيم جلبي الآذري) وكلاهما مدفون بجوار التكية الكيلانية ، وتاريخ وفاة الجلبي الآذري سنة ٩٩٣ هـ[2] .

---

(١) هو حمام الباشا الذي كان في جانب جامع المدفن . والحمام والجامع من بناء محمد باشا الأرناؤوط الذي مر ذكره . وقد اندرس هذا الحمام منذ قرن في جملة المعالم الكثيرة التي اندرست في حماة ، وبيعت وهي عامرة للحجارين ، كدار الفرح في محلة باب الجسر كانت وقفاً للأفراح ، فمن أراد أن يتزوج مثلاً ، يأخذ مفتاحها من متوليها ثلاثة أيام ، ذكره الصابوني .

(٢) قيل إنه كان في جوار الزاوية الكيلانية مقبرة للكيلانيين درست ، وبني محلها دور ، ولعل هذين القبرين اللذين ذكرهما الجلبي كانا فيها . أما حامد جلبي فلم أعثر على ترجمته ، ولعله كان قاضياً في حماة ، ورث القضاء والعلم عن أبيه ، أو جده عصام الدين أبي الخير أحمد بن مصطفى الشهير بطاشكوبري زاده مؤلف =

وبعد أن انتهينا من حماة ، أرسل الباشا الأطواغ إلى الأمام[1] ، ثم لحقتها القافلة في اليوم نفسه ، وما زلنا نسير في سهول فسيحة ، حتى نزلنا على جسر الرستن ، وهو جسر عظيم مبني على نهر العاصي ، وفي قربه هضبة مرتفعة شيدت فوقها قرية كبيرة تسمى الرستن ، قيل إن في جامعها ضريح المولى الشهير أبا يزيد البسطامي ، يزوره أكثر أهل هذه البلاد من العرب والتركمان ويتبركون به . والضريح تحت قبة عالية ، وفي جوار جامعها تكية ، يأوي إليها نحو مئة من الدراويش والفقراء وأبناء السبيل ، يطعمون ويكرمون . وفي الرستن جاء من دمشق إلى لقاء مولانا الباشا كتخدا شواش دمشق ، وأمين شواشها ، وآغة جندها الإنكشاري ، وغيرهم من موظفي الديوان ، فمثلوا بين يديه ، وقدموا له هدايا متنوعة ، وانضموا إلى قافلته .

ثم سرنا بعد الرستن في برار قفراء مدة ست ساعات إلى أن وصلنا مدينة حمص .

وحمص مركز لواء يتبع أيالة طرابلس الشام ، وفيها أمير آلاي ورئيس جند ورئيس مئة ، ولها أرباب زعامة وتيمار ، يبلغ عدد جندهم مع جند الباشا في أيام الحرب نحو

= كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، وكتاب موضوعات العلوم وغيرهما ، وكان عصام الدين من أعظم علماء الترك العثمانيين ، وأفضل من ألف منهم ونظم باللغة العربية ، توفي في سنة ٩٦٨ هـ . وأذري جلبي كان على ماقاله شمس الدين سامي مؤلف قاموس الأعلام ، من الفضلاء المبرزين في عهد السلطان سليم الأول ، كان عالماً شاعراً لطيف المعشر ، سلك مسلك القضاء وما زال يتنقل في قضاء مدن شتى في الأناضول ، حتى كانت خاتمة مطافه حماة ، توفي فيها سنة ٩٩٣ هـ ، ودفن في خارجها ، وله ديوان شعر تركي سماه (نقش خيال) .

(١) إن ملوك الشرق قديماً ، ولا سيما ملوك الترك والهند والصين ومثلهم السلاطين المماليك في مصر والشام ، على ماذكره القلقشندي في صبح الأعشى ، كانوا يضعون على راية عظيمة ، خصلة من شعر أذناب الخيل ملونة ومدلاة ويسيرونها أمام جيشهم يسمونها (جاليش) . ثم بدل العثمانيون اسمها إلى (طوغ) على ماذكره أحمد راسم في التاريخ العثماني المصور ، وغيروا شكلها فجعلوه رمحاً أو عصا طويلة ، يربطون في رأسها أذناب الخيل الملونة بالأحمر ، ويرسلونها متهدلة ، ويجعلون في أعلاها ضفائر مفتولة من الشعر الأبيض والأسود ، ثم يزينون هذه الضفائر بكرة مذهبة ، برز من وسطها هلال . وفي زمن السلاطين العثمانيين صارت هذه الأطواغ تمنح إلى ذوي المناصب العالية . وأمير اللواء كان له طوغ واحد ، وأمير الأمراء اثنان ، والوزراء ثلاثة ، والصدور العظام خمسة ، وإذا خرج السلطان إلى الحرب كان يسير أمامه سبعة أطواغ أ هـ . قلت : وكان معنى إرسال الأطواغ إلى الأمام ، وهو إعلام أهل القرى المجاورة قدوم الباشا ، ليعدوا المكان الصالح لنزول قافلته ، ويهيئوا القوت والعلف الكافيين لجنده وخيله ، والويل لمن كان يتأخر عن هذه السخرة .

ألفين ، وفيها شيخ إسلام ونقيب أشراف ومحتسب ونائب بلدة . ولوقوعها في وسط البرية ، فقد خرب الأعراب أكثر أعمالها . وقد دفن الحكماء والكهان في العصور الغابرة ، تحت أرض هذه المدينة القديمة ، طلاسم ضد الحيوانات السامة كالحيات والعقارب وأمثالها ، لهذا لم يبق أثر منها ، وإن وجدت بالصدفة ولسعت الإنسان لا يكون لها أثر .

وإذا نقلت تربة حمص لأي مكان ، وألصق قطعة منها على موضع لسع الحيات والعقارب وأمثالها يزول أثرها بإذن الله ، وسمعت من أهل حمص أن في أحد جوانبها مسجد ، على بابه رخامة من المرمر ، نقش عليها صورة عجيبة الشكل نصفها الأعلى كالإنسان ونصفها الأسفل كالعقرب ، فإذا ألصقوا على الصورة عجينة يحصلون على مثال منها ، وبعد جفاف العجينة إذا ألقوا قطعة منها في النار وبخروا بدخانها الرجل الملسوع من العقرب يزول عنه الألم . وقد تكرم الآغا محافظ القلعة علي بخمسين درهم منها فحفظتها عندي ، وبينما كنت ذات يوم أجول في أرمية من بلاد العجم لسع العقرب مملوكاً لي ، فأسرعت لتبخيره بدخان تلك العجينة فزال ألمه فوراً ، وسال من محل اللسع ماء أصفر .

وقلعة حمص مبنية على تل اصطناعي ، تبعد نحو خمسة آلاف خطوة عن العاصي ، ليس لها خندق ، بل لها باب من الحديد متجه إلى الغرب ، وفي داخلها بيوت يأوي إليها المحافظون من الجنود ، وفيها عدد كاف من المدافع . ولما دخل مولانا مرتضى باشا إلى حمص ، ضربت هذه المدافع إجلالاً له . وقلاع حمص وحماة وحلب مبنية على تلال اصطناعية . ويأتي الماء إلى حمص بساقية شقت من العاصي . وفي قلعة حمص جامع السلطان ، وهو جامع صغير لكنه معتبر ومقصود ، لاحتوائه على مصحف سيدنا عثمان المكتوب بالخط الكوفي ، يخرجون به أيام الاستسقاء في السنين التي تشح أمطارها . وفيها مدارس وكتاتيب وتكايا وخانات وحمام واحد ، ويأتي الماء إلى هذا الحمام من ناعورة ركبت على النهر العاصي ، وينسج في حمص من الحرير مناشف ومناديل وفوط وأكياس ، وفيها قبور كثير من الصحابة .

ثم غادرنا حمص ، ووصلنا بعد مسير ست ساعات إلى خان يدعى (إيكي قبولي) (ذو البابين) وهو خان عظيم وسط البادية ، يستوعب عشرة آلاف رأس من الخيل ، وقد دعي ذي

البابين لأن الغادين والصادين يدخلونه من باب ويخرجون من آخر . وفيها حصن وسط يحتوي على عدد من الجنود ، يحرسون الطريق من أشقياء الأعراب ، ثم سرنا ووجهتنا القبلة ، فوصلنا بعد سبع ساعات إلى النبك ، وهي قرية آهلة من أعمال دمشق ، ذات مياه غزيرة وكروم وبساتين وأشجار وفيها جامع ، ولو بني في جواره خان لزاد عمرانها .

ثم بعد مسير ست ساعات وصلنا إلى قلعة تدعى (خان القطيفة) ، وهو من أوقاف فاتح اليمن سنان باشا ، وقد وقف له نحو سبعين قرية ، والخان عظيم جداً لو دخلته قافلة مؤلفة من عشرة آلاف رجل بخيلها وجمالها لوسعها وزاد ، ففيه كثير من الغرف والاصطبلات الخاصة بالخيل ، وأخرى بالجمال ، ومقاصير للحريم ، ومستودعات للمؤونة ، وفرن وحمام وحوانيت للباعة ، ودائرة خاصة بالمتولي ، ودوائر خاصة بالباشاوات . وكل ذلك مشيد بالحجر ، وفي وسطه حوض ماء جسيم ، ويقدم فيه كل ليلة للمسافرين عشاء من حساء القمح المطبوخ باللحم ، هذا غير الخبز والشمع وغير علف الدواب . وقد أولم متولي الخان واسمه مصطفى جلبي بن قاسم آغا ، وليمة عظيمة لمولانا مرتضى باشا ، والحاصل أن خيرات هذا الخان وافرة ومشهورة .

ثم سرنا إلى القبلة فوصلنا بعد مسير ست ساعات إلى قرية (حرستا) ، وهي قرية عامرة فيها ثلاثمئة بيت ، وكثير من الحدائق والكروم وجامع ، وهنا خرج كل أعيان دمشق وكبرائها لملاقاة الباشا ، يحملون إليه أنواع الهدايا من مأكول ومشروب وملبوس وغيرها كل بحسبه ، وقد قبل الباشا كل ذلك منهم ، وكان من جملتها مئة وخمسون فرساً من عتاق الخيل ، تكرم حفظه الله ووزعها على أركان حاشيته ، فأصابني منها الفرس المسرجة ، وهي هدية ابن الناشف[1] ، وفي صباح اليوم الثاني جاءته جنود دمشق ، المؤلفة

---

(١) يظهر أن تقديم الهدايا للولاة عادة قديمة ، فقد قال الأستاذ الكرد علي في خطط الشام ٢٨٣/٢ : « ومما يظهر ذهنية الدولة في تلك الأيام أن الوالي يجب أن تهدى إليه الخيول والطنافس والأعلاق ، وربما الدنانير والدراهم من غير نكير . وما ندري كيف تكون الرشوة ، إن لم تكن هذه هي الرشوة بعينها » ا هـ . على أن هذه العادة لم تكن خاصة بالعثمانيين ، بل سبقهم إليها العباسيون وغيرهم أيضاً . قال جرجي زيدان في تاريخ التمدن الإسلامي ٧١/٥ : « وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي ، فإذا تولى الأمير على بلد ، فأول مايدخلها ، يبعث أهلها إليه بالهدايا ، من الأموال والجواري والدواب والثياب ، وهو يبعث إلى الوزير الذي ولاه أو الخليفة ، بالأموال بسبيل الهدية أيضاً ، وإذا طال مقامه ، أصبحت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة ، فإذا أمسكها عدوا إمساكه تمرداً ، عن ابن الأثير جـ ٧ و ٦ » .

من الانكشارية والقبوقول والسباهية واليرلية ، تموج كالبحر الزاخر ، وكلها غارق في الحديد والزرد ، فوقفت للسلام على جانبي الطريق صفوفاً متراصة ، بعضها وراء بعض ، وكانت راياتهم المتموجة ، ورماحهم المشرعة ، وسيوفهم المشهرة ، ودروعهم وخوذهم وتروسهم وبنادقهم ذات الفتائل تأخذ بالأبصار ، وأمامهم أغواتهم وضباطهم وشواشهم ، بأزيائهم وعدتهم الفاخرة ، واصطف مثلهم أمير الحاج سنان باشا[1] بجنده وحشمه ، وكذلك عيسى وموسى آغا التركانيين[2] وابن قاسم آغا[3] وابن عبد السلام[4]

---

(١) ذكره المحبي قال : سنان باشا الدورليلي بن محمود ، نزيل دمشق ، ومتولي الجامع الأموي بها ، أمير الأمراء ، وصدر أعيان الشام في وقته ، أصله من دورلي من ضواحي قرمان ، ورد إلى دمشق في سنة ١٠٣٣ هـ في خدمة أحد الوزراء المعين نائباً للشام ، وبعدما عزل مخدومه أقام هو بدمشق ، وصار من جندها ، وما زال يرقى حتى صار أمير الحاج ، فحج بالناس سنتين سنة ١٠٥٩ هـ وسنة ١٠٦٠ هـ ، ثم عزل ورق حاله ، إلى أن مات منكوباً سنة ١٠٧٦ هـ .

(٢) ذكر المحبي أحدهما موسى ، قال : الأمير موسى بن محمد ، الشهير بابن تركمان حسن الدمشقي الشجاع الباسل المشهور ، أمير الحاج ، وصاحب الوقعة المشهورة مع الأمير حمد بن رشيد أمير حوران ، تنقلت به مناصب الجند بالشام حتى صار باش جاويش ، ثم صار كتخدا العسكر ، وأمر بالسفر إلى محاصرة قندية في سنة ١٠٦٧ هـ ، واشتهر بالفروسية ، ثم وجهت إليه الإمارة ببلاد عجلون ، وكان له حسن ملائمة ومعاشرة مع البدو ، حتى صار لا ينطق إلا بلسانهم ، ولا يتزيا إلا بزيهم ، ثم لما خرج لتأديب ابن رشيد الذي نهب ركب الحاج ، قتل في المعركة وانهزم عسكره وذلك في سنة ١٠٨١ هـ .

(٣) قلت لعله هذا الذي ذكره المحبي ، قال : مصطفى بن قاسم بن عبد المنان ، متولي أوقاف السنانية بالشام ، الدمشقي كان واحد الوقت ، في المحاورة وسرعة البداهة والنكتة والنادرة ، واتفق أنه في قدمة مرتضى باشا الوزير ومن معه من العسكر ، أنه ورد إلى دمشق من أهالي حلب رجل يقال له عسكر ، وكان يحسن الموسيقى ، ويتردد إلى الأعيان للاستجداء ، فكان يخاطبه إذا دخل عليه ، أتانا مرتضى الجبار بعسكر جرار ، توفي سنة ١٠٧٥ هـ .

(٤) ذكره المحبي ، ونقلنا عنه في مقدمة هذه الرحلة حديث الفتنة التي أوقدها ، ضد مرتضى باشا لما جاء ثانية إلى دمشق في سنة ١٠٦٧ هـ . قال عنه إنه كان مرعشي المولد ، ونزيل دمشق ، وأحد أعيان الجند بالشام ، كان أميراً للحاج ، ثم صار كتخدا الجند ، ثم ييباشي (؟) ، وكبرت دولته ، وانحصرت فيه أمور الشام جميعاً . وبعد الفتنة ورد الأمر السلطاني بقتله ورفقائه ، فقتلوا وضبطت أموالهم وأملاكهم في سنة ١٠٦٩ هـ .